

## ٦ - بلاط الشهداء

بعد ألف ومائتي عام

للأستاذ محمد عبد الله عنان

« لما علم الفرنج وسكان بلاد الحدود الاسبانية بمقتل عثمان بن أبي نسعة وسمعوا بضخامة الجيش الاسلامي الذي سير اليهم ، استعدوا للدفاع جهدهم وكتبوا الى جيرانهم يلتمسون الغوث . وجمع الكونت سيد هذه الانحاء ( يريد أودو ) قواته وسار للقاء العرب ووقعت بينهما معارك سجال . ولكن النصر كان الى جانب عبد الرحمن بوجه عام فاستولى تباعا على كل مدن الكونت . وكان جنده قد نفخ فيهم حسن طالعهم المستمر فلم يكونوا يرغبون الا في خوض المعارك واثقين كل الثقة في شجاعة قائدهم وبراعته » وعبر المسلمون نهر الجارون وأحرقوا كل المدن الواقعة على ضفافه وخرّبوا جميع الضياع وسبوا جموعا لا تحصى ؛ وانقض هذا الجيش على البلاد كالعاصفة النخربة فاتحاحا ، واذكى اضطرام الجند نجاح غزواتهم واستمرار ظفرهم وما أصابوا من الغنائم . »

« ولما عبر عبد الرحمن نهر الجارون اعترضه أمير هذه الانحاء ولكنه هزمه ففر أمامه وامتنع بمدينته . فحاصرها المسلمون ولم يلبثوا أن اقتحموها وسحقوا بسيوفهم الماحقة كل شيء . ومات الكونت مدافعا عن مدينته واحتز الغزاة رأسه ( ١ ) . ثم ساروا مثقلين بالغنائم في طلب انتصارات أخرى ، وارتجت بلاد الفرنج كلها رعبا لاقترب جموع المسلمين ، وهرع الفرنج الى ملكهم قلدوس في طلب الغوث ، وأخبروه بما يأتيه الفرسان المسلمون من العيث والسفك وكأنهم في كل مكان ، وكيف أنهم احتلوا واجتاحوا كل أقاليم أربونة وتولوشة وبردال ( ٢ ) وقتلوا الكونت . فهدأ الملك روعهم ووعدهم بالغوث العاجل . وفي سنة ١١٤ سار على رأس جموع لا تحصى للقاء المسلمين . وكان المسلمون قد اقتربوا عندئذ من مدينة تور ، وهناك علم عبد الرحمن بأمر الجيش العظيم الذي سيلقى . وكان جيشه قد دبّ إليه الخلل لانه كان مثقلا بالغنائم من كل صوب . ورأى عبد الرحمن وأولو الحزم من زملائه أن يحملوا الجند على ترك هذه الأقاليم والاقصاء على أسلحتهم وخيولهم ولكنهم خشوا

(١) وهذا خطأ بين لان الكونت أودو لم يقتل عندئذ بل فر الى الشمال وعاد لقتال عبد الرحمن في تور كما قدمنا  
(٢) مدينة بوردو

التمرد أو أن يشبطوا عزائم الجند واستسلموا لرأى الوثاقين المستهترين . واعتمد عبد الرحمن على شجاعة جنده وحسن طالعهم المستمر . ولكن الاضطراب خطر خالد على سلامة الجيوش . صحيح أن الجند يحملهم ظمأ الغنم أن يأتوا جهودا لم يسمع بها فطوقوا مدينة تور وقاتلوا حصونها بشدة رائعة حتى سقطت في أيديهم أمام أعين الجيش القادم لانقاذها وانقض المسلمون على أهلها كالضواري المفترسة وأمعنوا القتل فيهم . قالوا ولعل الله أراد أن يعاقب المسلمين على تلك الآثام ، وكان طالعهم قد ولى . »

« وعلى ضفاف نهر « الأوار » ( الوار ) اصطف رجال اللغتين والتقى المسلمون والنصارى وكلاهما جزع من الآخر ، وكان عبد الرحمن ثقة منه بظفره المستمر هو البادية . بالهجوم فانقض بفرسانه على الفرنج بشدة وقابله الفرنج بالمثل . ودامت المعركة ذريعة مروعة طوال اليوم حتى جن الليل وفرق بين الجيشين . وفي اليوم التالي استؤنف القتال منذ الفجر بشدة ، وشق بعض مقدمي المسلمين طريقهم الى صفوف العدو وتوغلوا فيها . ولكن عبد الرحمن لاحظ والمركة في أوج اضطرابها أن جماعة كبيرة من فرسانه غادرت الميدان بسرعة لحماية الغنائم المكسدة في المعسكر العربي ، لان العدو أخذ يهددها . فأحدثت هذه الحركة خللا في صفوف المسلمين ، وخشى عبد الرحمن عاقبة هذا الاضطراب فاخذ يشب من صف الى صف يحث جنوده على القتال ، ولكنه ما لبث أن أدرك أنه يستحيل عليه ضبطهم ، فارتد يحارب مع أشجع جنده حيثما استقرت المعركة ، حتى سقط قتيلًا مع جواده وقد اثخن طعانا . وهنا ساد الخلل في الجيش الاسلامي وارتد المسلمون في كل ناحية ولم يعاونهم على الانسحاب من تلك المعركة الهائلة سوى دخول الليل » واستفاد النصارى من هذا الظرف فطاردوا الجنود المنهزمة أياما عديدة ، واضطر المسلمون أثناء انسحابهم أن يحمّلوا عدة هجمات واستمر الصراع بين منازر مروعة حتى أربونة . »

« وقد وقعت هذه الهزيمة الفادحة بالمسلمين وقتل قائدهم الشهير عبد الرحمن سنة ١١٥ هـ ، ثم إن ملك فرنسا حاصر مدينة أربونة . ولكن المسلمين دافعوا عنها بشجاعة متناهية حتى أرغم على رفع الحصار وارتد الى داخل بلاده وقد أصابته خسائر كبيرة » ( ١ ) وأورد المؤرخ كاردون من جهة أخرى في كلامه عن الموقعة فقرة ، ذكر أنه نقلها عن ابن خلكان جاء فيها : « لما استولى العرب على قرقشونة خشي قارله ( كارل ) أن يتوغلوا في الفتح فسار لقتالهم في الارض الكبيرة ( فرنسا ) في جيش ضخم وعلم العرب

المسلمين في هذا المقام على أنهم لم يروا أن يبسطوا القول في مصاب  
جلل نزل بالاسلام ولا أن يفيضوا في تفاصيله المؤلمة ، فاكتفوا  
بالإشارة الموجزة اليه ، ولم يكن ثمة مجال للتعليق أيضا ، ولا التحدث  
عن نتائج خطب لا ريب أنه كان ضربة للاسلام ولطامع الخلافة  
ومشاريعها. واذا استثنينا بعض الروايات الاندلسية التي كتبت عن  
الموقعة في عصر متأخر ، والتي نقلناها فيما تقدم فان المؤرخين  
المسلمين يتفقون جميعا في هذا الصمت والتحفظ . وهذه طائفة من  
أقوالهم واشاراتهم الموجزة :

قال ابن عبد الحكم وهو من أقدم رواة الفتوح  
الاسلامية واقرّب من كتب عن فتوح الاندلس ما يأتي : —  
( يتبع )

بشدهم وهم في لودون ( ليون ) وان جيشه يفوقهم بكثرة ، فعولوا  
على الارتداد . وسار قارله حتى سهل أنيسون دون أن يلقي أحدا .  
اذ احتجب العرب وراء الجبال وامتنعوا بها ، فطوق هذه الجبال  
دون أن يدرى العرب ثم قاتلهم حتى هلك عدد عظيم منهم وفر  
الباقون الى أربونة . فحاصر قارله أربونة مدة ولم يستطع فتحها  
فارتد الى أراضيها وأنشأ قلعة وادى رذونه ( الرون ) ووضع فيها  
حامية قوية لتكون حدا بينه وبين العرب » ( ١ )

ونعود بعد ذلك الى الرواية الاسلامية فنقول ان المؤرخين المسلمين  
يمرون على حوادث هذه الموقعة الشهيرة اما بالصمت أو الإشارة  
الموجزة . ويجب أن نعلم بادية بدء أن موقعة تور تعرف في التاريخ  
الاسلامي بواقعة البلاط أو بلاط الشهداء لكثرة من استشهد فيها

من أكابر المسلمين والتابعين . وفي هذه التسمية  
ذاتها ، وفي تحفظ الرواية الاسلامية ، وفي  
لهجة العبارات القليلة التي ذكرت بها  
الموقعة ، ما يدل على أن المؤرخين المسلمين  
يقدرّون خطورة هذا اللقاء الحاسم بين الاسلام  
والنصرانية ، ويقدرّون فداحة الخطب الذي  
نزل بالاسلام في سهول تور . ويدل على لون  
الموقعة الديني ما تردده الاسطورة الاسلامية  
من أن الاذان لبث عصورا طويلة يسمع في بلاط  
الشهداء ( ٢ ) ونستطيع أن نحمل تحفظ المؤرخين

( ١ ) راجع — Cardonn ; ibid : V.I 129 —  
131 وقد بحثنا طويلا في كتاب وفيات الاعيان لابن  
خلكان في مظان وجود هذه التفاصيل فلم نثرع عليها . ولعل  
كاردون وقد كتب في اواسط القرن الثامن عشر واستعان  
بمخطوطات عربية في المكتبة الملكية في باريس قد نقل  
عن نسخة لابن خلكان فيها زيادات عن النسخة التي بين  
أيدينا ، ولنا نعلم من جهة أخرى أن لابن خلكان مؤلفا  
تاريخيا آخر يمكن أن يحتوى مثل هذه التفاصيل .

( ٢ ) المقرئ عن ابن حبان ( ج ٢ ص ٥٦ )

